النقد الروائي الغربي – الجذور الأولى

ارتبط ظهور نظرية الرواية باهتمام علم الاجتماع بالفن الروائي الذي اهتم بدوره بالواقع الاجتماعي. وكان علم الاجتماع الجدلي سباقاً إلى التأمل في الرواية، وفي العالم العربي أيضاً كان ظهور الرواية الواقعية حافزاً مباشراً لظهور النقد الإيديولوجي الاجتماعي.

ولم تكن للمنهج الاجتماعي في نقد الرواية صورة واحدة . إذ يمكن الحديث عن ثلاثة أشكال في سيرورة ارتباط هذا المنهج بنقد الرواية ، وهي :

أ – النقد الجدلي في صورته الأولى.

ب – البنيوية التكوينية (عند لوكاتش وغولدمان)

ج – سوسيولوجية النص الروائي.

إن ما يجعل هذه الأشكال الثلاثة تنتمي إلى المنهج الاجتماعي، هو أنها تنطلق كلها من فكرة أساسية هي أن النص الروائي له علاقة ما بالواقع الاجتماعي، ويختلف بعد ذلك كل منها في تحديد طبيعة هذه العلاقة .

أ– النقد الجدلي الروائي في صورته الأولى:

ارتبط النقد الجدلي بالمادية التاريخية، وأخذ منها ركائزه الأساسية، وأهمها أن النتاج الأدبي بما في ذلك الرواية هو شكل من أشكال البنية الفكرية للمجتمع ، وما دام المجتمع يشهد صراعاً بين طبقاته حول المصالح المادية فهذا يعني أيضاً أن الصراع موجود على مستوى الفكر. ومن هنا تدخل الرواية باعتبارها أدباً أي شكلا من أشكال الفكر، في خضم الصراع الفكري الاجتماعي ، وهذا التصور يقضي بأن الرواية لا يمكن أن يكون لها شكل واحد في مجتمع ما، فكل طبقة أو فئة اجتماعية لها فنها الخاص ، ولها تصورها المتميز لما ينبغي أن تكون عليه أشكال تعبيرها الأدبي، وما يجب أن تقوم به من أدوار في الصراع الفكري والإيديولوجي .

لقد كان من الطبيعي إذاً – وخاصة في المرحلة الأولى لاتصال النظرة الجدلية بالنقد الروائي – أن يهتم النقاد بمضامين الفن الروائي بالدرجة الأولى، وذلك قصد تحديد موقف المبدع من الصراع الاجتماعي قصدي الوصول إلى المدلول الأيديولوجي .

إن الذين مارسوا النقد الروائي الجدلي في صورته الأولى لم يلتفتوا كثيراً للجانب الجمالي ودوره في تحديد الدلالة الاجتماعية والإيديولوجية في الرواية، وهذا ما تعذر بسببه – على الأقل في هذه المرحلة الأولى من مراحل تطور المنهج الاجتماعي قيام نظرية نقدية للرواية .

إن النقد الجدلي في صورته الأولى، باعتباره ينظر إلى الرواية كإديولوجيا – مثلها في ذلك مثل أشكال الإديولوجيا الأخرى الفلسفة، الدين الخطب السياسية –، لم يكن يعطي لبنائها الجمالي أهمية أساسية خاصة قبل تظهر أعمال جورج بليخانوف (Georghi Plekhanov)، الذي يعد أول من ذهب إلى الإشارة إلى قضية ضرورة التمييز بين الرواية والأيديولوجيا .

ب– البنيوية التكوينية (لوكاتش، وغولدمان)

لقد كانت الخطوة الثانية بعد (بليخانوف) مُحَاوَلَةً فعالة في بناء تصور أكثر نضجاً لسوسيولوجيا الرواية، وذلك دائماً في إطار النظرية الجدلية، وقد قام بهذه الخطوة الناقد المجري **جورج لوكاتش (George Lukacs)**.

وعلى الرغم من أن اهتمامه كان سياسياً بالدرجة الأولى إلا أنه أولى فن الرواية عناية خاصة. وقد ألف كتاباً يحمل عنوان «نظرية الرواية (1920). أما مساهمات «لوكاتش في النقد الروائي، فهي متعددة منها : دراسته عن بلزاك والواقعية الفرنسية (1951)، فقد أسهب في تحليل الخلفيات الفكرية، والإيديولوجية التي كانت وراء إبداع بالزاك لرواياته ، كما أنه لمح لمقولة رؤية العالم التي أصبحت فيما بعد من مرتكزات البنيوية التكوينية

وكان لوكاتش من أوائل الذين نبهوا بشكل واضح إلى ضرورة احتياط الناقد من الوقوع في الخطأ الفادح الذي ينشأ عن النظرة الميكانيكية في تفسير أعمال الروائيين اعتماداً على انتماءاتهم الاجتماعية أو اعتماداً على معتقداتهم التي يعلنون عنها بشكل مباشر، فعندما يتعلق الأمر بالابداع الروائي فإنه قد يحدث أحيانا تفاوت كبير بين المعتقدات النظرية والإيديولوجية للكاتب وبين الرؤية الفكرية فالإبداع يحرر المبدع أحياناً حتى من أفكاره الراسخة ويبرز رؤيته الحقيقة للعالم .

وعندما ننتقل إلى **لوسيان غولدمان Lucien Goldmann** فقد أعطى سوسيولوجيا الرواية مظهراً جديداً شديد المرونة، دون أن يتنكر أو يتخلى عن المبادئ الفلسفية الأساسية التي انطلقت منها الأشكال السابقة لسوسيولوجيا الرواية ، وهي مبادئ الفلسفة المادية .

ويمكن تلخيص المنطلقات الرئيسية التي اعتمد عليها غولدمان في بناء وتطوير نظرية الرواية على الشكل التالي:

– إن الرواية هي تعبير عن رؤية العالم، وهي رؤية تتكون داخل جماعة أو طبقة معينة في احتكاكها بالواقع وصراعها مع الجماعات الأخرى .

– إن دور المبدع هو إبراز هذه الرؤية وبلورتها في أفضل صورة ممكنة ومتكاملة لها ، أي أنه يعبر من خلالها عن الطموحات القصوى للجماعة التي ينتمي إليها أو يعبر عن أفكارها، وهذا يعني أن المبدع ليس هو صاحب الرؤية الفكرية في العمل الروائي، ولكنه مبرزها وموضحها فقط .

ج– سوسيولوجيا النص الروائي :

ان سوسيولوجيا النص، لم تظهر كاتجاه واضح المعالم، ومتميز بهذه التسمية ذاتها، إلا في وقت متأخر من هذا القرن، وخاصة من خلال الدراسات التي نشرها (بيير زيما pierre) Zima) الذي كان من تلامذة غولدمان. ولعل هذا كان هو المصدر الذي

وجهه إلى الاهتمام بسوسيولوجيا الأدب. لقد كان أغلب اهتمام زيما موجها في إطار هذا المنهج، لدراسة الرواية بشكل خاص خاصة في كتابه من أجل علم اجتماع النص الأدبي .

غير أن بيير زيما لا يمكن اعتباره – مع ذلك – مؤسساً لاتجاه سوسيولوجيا النص الروائي، ولكنه فقط مبرز لبعض معالمه التي كانت موجودة في الواقع قبله سواء في أعمال لوكاتش» أو «غولدمان أو على الأخص في أعمال ميخائيل باختين، الذي يمكن اعتباره المؤسس الحقيقي لهذا الاتجاه بحكم تقدم أعماله وسبقها في الزمن.

لكن الحديث عن هذا الاتجاه وبهذه التسمية يعود إلى بيير زيما ، ولا بد هنا أن نوضح الفرق الدقيق بين سوسيولوجيا الرواية وسوسيولوجيا النص الروائي ، فالأولى تدل على منهج نقدي في الرواية يصفه البنيويون المعاصرون بأنه يجعل اهتمامه الأول محصوراً في البحث عن سببية الظاهرة الروائية ، أما سوسيولوجيا النص الروائي، فتتدارك – من وجهة نظر أصحابها – هذا النقص، لأنها تعتقد أنها تمتلك الوسائل والتقنيات المسهلة لتحليل الأعمال الروائية من الداخل، أي تحليل المستوى التركيبي، والكشف من خلاله – فقط – عن العلاقات الاجتماعية في محاولة لإثبات التماثل الموجود بين البنية الاقتصادية والاجتماعية، والثقافية السائدة في فترة تاريخية من جهة، والبنية اللسانية المتحققة في النص الروائي المدروس من جهة ثانية .